قصة قصيرة

مدينة النور

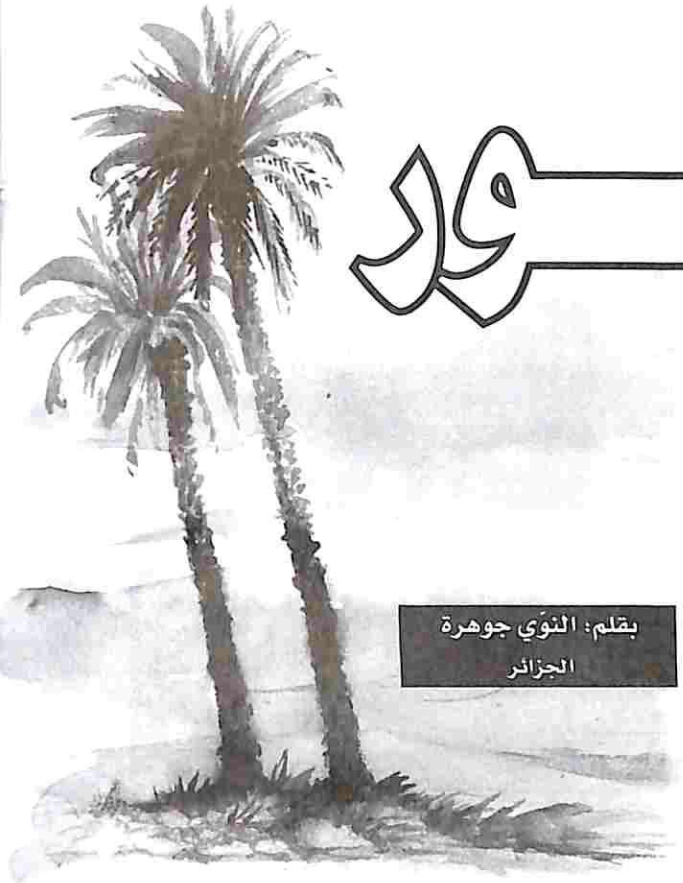

بقلم: النوّي جوهرة
الجزائر

في واحة صغيرة وسط صحراء شاسعة تبدو بعض نخلات هنا وهناك .. وعدة أكواخ .

وكان مجموعة من الصبية يلعبون لعبة الاختباء .. لم يكن معهم كرة ولا أية لعبة أخرى لأنهم كانوا فقراء جدا . واحتهم أيضا تبدو كذلك.

«عمر» أذكى الصبية وأشجعهم، اكتشف منذ مدة مكانا يختبئ فيه دون أن يكشفه أحد، كان ذلك في البئر القديمة! لم تكن عميقة ولم يكن بها ماء . وها هو ذا منذ مدة في مخبئه الجديد ينتظر .. مضت فترة طويلة دون أن يجده أحد . فأخذ يخط بيده خطوطا على الرمل، لمس شيئا! .. خاف في البداية، لكنه تذكر ما يرويه أهل الواحة عن الكنز المخبأ فيها منذ سنين .. بدت الفرحة واضحة على وجهه، وسرعان ما أدخل يده بلهفة في الرمل وأخرج كتابا قديما جدا تآكلت بعض أوراقه الصفراء! ولأن «عمر» لم يذهب في حياته إلى المدرسة، رفاقه أيضا وسكان الواحة كلهم لا يقرؤون . أمسك الكتاب وأخذ يقلبه بين يديه وينظر إليه بدهشة . بدا له أنه لا يصلح لشيء، فألقى به خارج البئر .

رآه أحد الأولاد فجاء يجري .

- آه ! أنت هنا، بحثنا عنك طويلا.

لن يستطيع أحد معرفة مكانك لولا هذا الذي ألقيته ماهو؟

- أجاب عمر : لا أدري.

جاء بقية الأولاد حين رأوا الكتاب، أصابتهم دهشة!

قال أحدهم: يوجد مثل هذا عند الشيخ عبدالله .

الشيخ عبدالله هو أكبر سكان الواحة سنا، يبدو ذلك من شعره الأبيض ولحيته الطويلة البيضاء والتجاعيد التي تملأ وجهه الأسمر .

لا أحد يعلم من أين جاء؟ ولا منذ متى؟ يعيش منعزلا . لا يرى إلا وهو يصلي أو يقرأ كتابا يشبه الكتاب الذي وجده الأطفال.

أحيانا يبدو لمن يراه كأنه يخفي سرا أوينتظر شيئا ما. لا أحد يعلم . كل ما يعلمه سكان الواحة أنه عطوف جدا وطيب يساعد كل من يراه بحاجة إلى ذلك . حتى الصغار يعاملهم تماما كما يعامل الكبار.

حين طال نقاش عمر ورفاقه حول الكتاب لم يجدوا ما يمكن أن يفعلوه به، فقرروا تركه . لكن عمر: أشار عليهم أن يأخذوه إلى الشيخ عبدالله، فقد يجد هو ما يفعله به وقد يسعده ذلك كثيرا.

وافق الأطفال على الفكرة وأسرعوا حاملين له الكتاب .

ما إن رأى الشيخ الكتاب وأمسكه حتى بدت عليه دهشة بالغة، وبدا وكأنه لا يصدق . فأخذ يتأمله ويقلبه بين يديه سائلا أين وجدتموه؟وكيف؟ وحين أجابه الأطفال ضمه إلى صدره وهو يضحك حينا ويبكي حينا آخر .. ثم قال بصوت خفيض سمعه الأطفال «الحمدلله» أنتم وجدتموه؟ أنتم وجدتم الكنز؟ حان الوقت إذن !..

تعجب الأولاد كثيرا كيف يظهر كل هذا الفرح لأجل شيء كهذا؟ !..

فقال عمر: كيف تقول إن هذا الشيء كنز؟ والكنز هو المجوهرات اللامعة والمال الكثير؟

التفت الشيخ قائلا: هذا الكتاب يفوق كل كنوز الدنيا قيمة وهو أثمن من المجوهرات وأغلى من المال.

كان ضائعا ولا يعرف أحد مكانه منذ ضاع. إنه يروي حكاية هذه الواحة.

- وهل لواحتنا حكاية؟

- نعم من أجمل الحكايا وأروعها ... ثم نظر إلى السماء وقد امتلأت عيناه دموعا وقال:

هذه الواحة الفقيرة .. كانت ذات يوم مدينة جميلة جدا.

بدت الدهشة واضحة على الأولاد حوله. لاحظ الشيخ ذلك فاسترسل في حديثه قائلا:

منذ عهد بعيد جدا عاش أجدادكم الأولون حياة صعبة وشاقة في هذه الصحراء .. متفرقين هنا وهناك ... كثيرا ما تقوم بينهم خلافات وحروب تدوم سنوات طويلة لتخلف بعدها الموت والدمار والجوع والفقر.

إلى أن جاءهم رجل اسمه أحمد، وكان أحمد هذا معلما بارعا وقائدا ناجحا. جاء من موطن بعيد جدا ليقيم معهم وكان منذ قدومه يحمل كتابا في يده ولا يضعه أبدا. هو هذا الذي وجدتموه وكان سر نجاحه وبراعته.

جمع الناس حوله وجعلهم يحبونه ويحب بعضهم بعضاً، وكان ذلك أول درس علمهم إياه. ثم بعد ذلك علمهم كيف يقرؤون الكتاب، وكيف يأخذون دروسهم منه.. وكان بناء مدينة لهم أهم درس تعلموه.

لم يمض وقت طويل حتى صارت الصحراء مدينة جميلة وصار سكانها إخوة متحابين متحدين. لا يسرقون ولا يكذبون ولا يخونون. وكما كانت نفوسهم نظيفة وجميلة كانت مدينتهم كذلك.

كان الصفاء يعم كل شيء وكانت المحبة والتعاون والتسامح بين كل الناس.

أناس كهؤلاء يحبهم الله ويبارك وجودهم ويجازيهم دوما خير جزاء. وجزاء هؤلاء كان عظيما. فذات صباح وهم يستقبلون يوما جديدا فوجئوا بنور وهاج يضيء كل المدينة لا ينطفئ ساعة واحدة من ليل أو نهار فبدت المدينة في الصحراء وكأنها لؤلؤة وضيئة لا يضاهي ضوءها ولا جمالها جمال. وكانت بحق أجمل مدن الدنيا فأطلق عليها «مدينة النور»

سمع الناس في كل مكان عن مدينة النور فجاؤوها زائرين ليروا جمالها وهذا النور الذي لم يسبق لمدينة أن حظيت بمثله .. ولم يكن النور والجمال وحدهما يميزان المدينة، إنما كرم أهلها ولطفهم الكبير كان سببا آخر لإقبال الناس عليها، فكثيرا ما تخلوا عن بيوتهم لزوارهم ليبحثوا هم عن بيوت أخرى لأنفسهم. وكذلك كان شأنهم في كل شيء ومع كل الناس مما جعل الكثير من الزوار يستقرون فيها. وهكذا كلما ازداد سكانها ازدادت هي نورا وبهاء.

عاش الناس على هذه الحال من الرخاء والوئام زمانا طويلا إلى أن مات معلمهم «أحمد» وقد ترك لهم الكتاب وأوصاهم أن يحفظوه، ليعيشوا بعده حياة سعيدة هانئة لا يشقون فيها أبدا لكن الناس نسوا «أحمد» وأضاعوا الكتاب، فضاعوا وتفرقوا من جديد.. وعادت النزاعات بينهم والأحقاد. فرحل عنها من رحل وضل عنها من ضل .. واستمروا في ضلالهم فازدادوا بذلك تشتتا وفقرا .. إلى اليوم كما ترون.

كان لابد أن يُعثر على الكتاب لأنه لم يكن كتابا عاديا، ولأن المدينة التي يتعلمون بناءها منه هي مدينة لكل العصور والأزمان.

هل عرفتم قيمة الكتاب؟ أليس العثور عليه أفضل من كنز؟

تأثر الأطفال كثيرا بالقصة التي رواها الشيخ. وأحبوا المدينة وتمنوا لو أنهم رأوا جمالها واستمتعوا بنورها .. كانت الحسرة بادية على وجوههم، فقال أحدهم يجيب الشيخ:

- نعم، هذا الكتاب هو أفضل كنز يمكن أن نعثر عليه في واحتنا لكن ما الفائدة؟ فلم يعد لمدينتنا وجود.

قال الشيخ وهو يبتسم: صحيح لم يعد للمدينة وجود لكن الكتاب موجود بين أيديكم، وبه تستطيعون بناء كل شيء من جديد.

قال عمر بحماسة ودهشة: نستطيع بناء كل شيء من جديد؟ كيف؟

عندئذ أمسك الشيخ الكتاب بكلتا يديه قائلا: هنا قواعد البناء واضحة .. وأنا سأعلمكم كيف تقرؤونه وكيف تعيدون مدينة النور من جديد.

ومنذ ذلك اليوم نسي الأطفال ألعابهم وصاروا يجتمعون عند الشيخ «عبدالله» يتعلمون القراءة والكتابة بنهم شديد وشوق أشد لرؤية مدينة النور قائمة من جديد. ■